مدينة زليتن في كتابات زائـــــــــريها خلال القرن التاسع عشر الميلادي

وفاء بلعيد القايد

عضو هيئة تدريس -قسم التاريخ - كلية الآداب الخمس– جامعة المرقب - ليبيا
wafaaqaad2022@yahoo.com

ملخص البحث :

لقد لقيت مدينة زليتن اهتماما كبيرا من عديد الكتاب في القرن التاسع عشر الميلادي؛ إثر تنامي الاهتمام الدولي بليبيا بشكل خاص وأفريقيا بشكل عام، وظهر الاهتمام جليا وواضحا في مجموعة المدونات والكتابات التي ذبجها من زاروا غرب ليبيا في فترات متفرقة من ذلك القرن، وكان لمدينة زليتن مكانتها البارزة في تلك الكتابات وفق ثقافات وظروف تأليفها والغايات التي جاء أصحابها من أجلها إلى ليبيا عربا كانوا أو أجانب، زوارا أو مكتشفين أو رحالة أو أطباء أو رجال مخابرات ونحوهم. وقع اختياري على هذه الفترة الزمنية (القرن التاسع عشر الميلادي) لما لها من أهمية في تاريخ ليبيا الحديث وزليتن على وجه الخصوص، فالعقود الثلاثة الأولى من القرن كانت الهيمنة فيها للقرمانليين حيث وصلت دولتهم إلى أوج ازدهارها وكانت مدينة زليتن لؤلؤة تتزين بها سماء المنطقة الوسطى في غرب البلاد، وشهدت الانهيار الكبير للحكم القرمانلي وعودة الحكم العثماني المباشر للبلاد الليبية، حيث دخلت زليتن في مرحلة جديدة على مستوى الإدارة والاقتصاد والثقافة ونحوها، ومن ثم انعكس هذا على كتابات زائريها؛ فخصوها بالكثير من الاهتمام.

تسعى الدراسة لمعرفة طبيعة تلك الكتابات ومعرفة مؤلفيها وأصحابها ومعرفة الصورة التي رسمت لزليتن على صدر صفحات تلك الكتابات. وتسعى الباحثة من وراء هذا الدراسة للإجابة عن مجموعة من التساؤلات منها: ما طبيعة كتابات زائري زليتن خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟ وما أهميتها التاريخية والعلمية؟، وما الصورة التي رسمت لزليتن في تلك الكتابات وأهميتها عند دراسة تاريخ المدينة الحديث؟.

الكلمات المفتاحية: مدينة زليتن، الرحالة، الحياة العلمية، القرن 19م

المقدمـــــــة:

لقد لقيت مدينة زليتن اهتماما كبيرا من عديد الكتاب في القرن التاسع عشر الميلادي؛ إثر تنامي الاهتمام الدولي بليبيا بشكل خاص وأفريقيا بشكل عام، وظهر الاهتمام جليا وواضحا في مجموعة المدونات والكتابات التي ذبجها من زاروا غرب ليبيا في فترات متفرقة من ذلك القرن، وكان لمدينة زليتن مكانتها البارزة في تلك الكتابات وفق ثقافات وظروف تأليفها والغايات التي جاء أصحابها من أجلها إلى ليبيا عربا كانوا أو أجانب، زوارا أو مكتشفين أو رحالة أو أطباء أو رجال مخابرات ونحوهم.

وقع اختياري على هذه الفترة الزمنية (القرن التاسع عشر الميلادي) لما لها من أهمية في تاريخ ليبيا الحديث وزليتن على وجه الخصوص، فالعقود الثلاثة الأولى من القرن كانت الهيمنة فيها للقرمانليين حيث وصلت دولتهم إلى أوج ازدهارها وكانت مدينة زليتن لؤلؤة تتزين بها سماء المنطقة الوسطى في غرب البلاد، وشهدت الانهيار الكبير للحكم القرمانلي وعودة الحكم العثماني المباشر للبلاد الليبية، حيث دخلت زليتن في مرحلة جديدة على مستوى الإدارة والاقتصاد والثقافة ونحوها، ومن ثم انعكس هذا على كتابات زائريها؛ فخصوها بالكثير من الاهتمام.

تسعى الدراسة لمعرفة طبيعة تلك الكتابات ومعرفة مؤلفيها وأصحابها ومعرفة الصورة التي رسمت لزليتن على صدر صفحات تلك الكتابات. وتسعى الباحثة من وراء هذا الدراسة للإجابة عن مجموعة من التساؤلات منها: ما طبيعة كتابات زائري زليتن خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟ وما أهميتها التاريخية والعلمية؟، وما الصورة التي رسمت لزليتن في تلك الكتابات وأهميتها عند دراسة تاريخ المدينة الحديث؟.

ولما كانت الدراسة وصفية تحليلية مرتكزة على معرفة صورة مدينة زليتن في كتابات زائريها في القرن التاسع عشر الميلادي فإنها اتبعت المنهج التاريخي الوصفي، معتمدة على المادة العلمية التي أوردتها تلك الكتابات بالدرجة الأولى مع عدم إغفال مصادر تاريخ ليبيا الحديث الأخرى كلما كان ذلك ضروريا.

قسم البحث إلى مبحثين، يتناول المبحث الأول أهمية موقع ليبيا لدى زائريها، متضمنا تعريفا بطبيعة كتابات زائري مدينة زليتن خلال القرن التاسع عشر، وأسباب قدومهم للمدينة، وأما المبحث الثاني فيتحدث عن صورة المدينة في تلك الكتابات.

أولا: أهمية موقع ليبيا لدى زائريها:

لقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي توافد العديد من الزائرين لطرابلس الغرب من رحالة وأطباء وتجار وغيرهم، وكان قصدهم إما زيارة دواخلها أو متابعة الرحلة إلى بلدان أخرى[1]. حيث استعان هؤلاء الزائرون بخبرة الطرابلسيين في معرفة الطرق المؤدية إلى بلاد السودان وبأوضاعها الداخلية، حيت اكتسب الطرابلسيون هذه الخبرة من خلال تواصلهم المستمر مع أهالي بلاد السودان الأوسط، لوقوعها مع الحدود مع طرابلس الغرب، حيث كانوا يعرفون أوضاعهم المعيشية وظروفهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي أو قبل ذلك بقليل ازداد عدد الرحالة والتجار وبالأخص الألمان والإنجليز الذين أخذوا يفدون إلى طرابلس، كي يقوموا برحلاتهم في الأراضي الطرابلسية ساحلية كانت أو داخلية، ثم يتجاوزوها إلى البلدان المجاورة خاصة إلى المرافئ الطرابلسية كميناء طرابلس وميناء بنغازي[3].

ولهذا فان موقع طرابلس جعلها تتوسط أقطار الشمال الأفريقي وتطل على البحر المتوسط، وبأن تكون حلقة وصل بين الشرق والغرب، وبذلك جعلها مقصدا للزائرين الأجانب كما جعلها مقصدا ومطمعا للدول الاستعمارية، لأن موقعها هذا أتاح لها أن تكون بوابة أفريقيا حيث رأت هذه الدول أنه لا يمكن تحقيق مصالحها السياسية والتجارية في بلدان ما وراء الصحراء إلا عن طريق سيطرتها على الأراضي الطرابلسية[4].

مما سبق يتضح أهمية موقع طرابلس الغرب المميز الذي جعلها مقصدا للعديد من الرحالة الأجانب أيضا فإن العلاقات التي كانت تربط حكام طرابلس الغرب مع جل البلدان الأوربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي كان له الدور البارز أيضا في توجه هؤلاء الرحالة والزائرين إلى طرابلس الغرب.

كان الرحالة الذين زاروا طرابلس الغرب قد تعددت مشاربهم وغاياتهم وثقافاتهم لأنهم كانوا من جنسيات مختلفة، وكانوا يتلقون دعما من قبل السلطات في طرابلس، حيث كان قبل الرحلة يتم الترتيب والاستعداد لها استعداد جيدا باختيار المساعدين لهم وتحديد سفر القافلة وخط سيرها والمرافقين لها، كما كانوا يحرصون على توصيات مهمة من الحكام لتسهيل القيام بالمهام المكلفين بها[5].

وسنخصص هذه الفقرة للتعريف بزائري مدينة زليتن فقط، حيث تناولت كتاباتهم مدينة زليتن من جميع النواحي الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية وغيرها، وكان من هؤلاء الزائرين:

1-الرحالة الطبيب الإيطالي باولو دي لاشيلا:

وهو طبيب رافق الحملة التي أرسلها يوسف باشا القرمانلي للقضاء على التمرد في برقة، وكانت الحملة بقيادة نجل الباشا أحمد سنة 1817م، للقضاء على تمرد قاده شقيقه محمد الابن الثاني للباشا. جمع دي لاشيلا مشاهداته أثناء رحلته البرية الساحلية إلى برقة ودون يومياته ووضعها في كتاب حمل عنوان أخبار الحملة العسكرية، ويعتبر كتابه من أهم المصادر التي أرخت لتاريخ تلك المرحلة، حيث رافق الحملة البرية من طرابلس إلى درنة، وكان شديد الملاحظة ما حوله من

(1)الأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور1873، ترجمة عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2005، ص15.

(2) رجب انصير الأبيض، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009، ص48.

(3) إفالد بانزه، طرابلس مطلع القرن العشرين في وصف الجغرافي الألماني إفالد بانزه، دراسة وترجمة: عماد الدين غانم، مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية، طرابلس،1997، ص18.

(4) رجب انصير الأبيض، المرجع السابق، ص26.

(5) المرجع نفسه، ص32.

نباتات وتضاريس حيث أرسل إلى أستاذه فيفياتي بجنوه حوالي ثمانية عشر رسالة، وكان أستاذه أستاذا لعلم النبات بجنوه الإيطالية[6]. وفي طريقه مع الحملة المشار إليها وأثناء مروره بزليتن دون دي لاشيلا ملاحظاته وانطباعاته عن المنطقة.

2- الرحالة الإنجليزي جون فرانسيس ليون:

وهو من بين أشهر الرحالة الإنجليز الذين زاروا طرابلس الغرب في هذه الفترة، وليون هذا زار طرابلس الغرب سنة 1818م، برفقة السيد ريتشي، حيث انطلقت الرحلة من مالطا إلى طرابلس، وبعد أن مكث أياما بطرابلس اتجهت فرقة ليون إلى فزان، وأثناء عودته من فزان زار ليون مدينة زليتن، ومكث بها قرابة يومين، ودون عنها ملاحظاته المنشورة في كتابه المعنون من طرابلس إلى فزان[7].

3-الأخوان هنري وفريدرك بيتشي:

الأخوان هنري وفريدرك بيتشي الإنجليزيان زارا ضمن مجموعة مرافقة بعض مناطق طرابلس خلال سنتي1821-1822م، حيث انطلقت الرحلة في الخامس من نوفمبر1821 ضمن مجموعة من رجال البحرية البريطانية، وكانت الرحلة البرية قد تمت عبر الساحل الطرابلسي انطلاقا من طرابلس إلى درنة، وهدفت هذه الرحالة إلى معرفة ودراسة الآثار وجغرافية المنطقة، كما اهتمت أيضا بمحاولة التعرف عن الأحوال الصحية داخل الإيالة[8].

4-الرحالة الإنجليزي جميس ريتشاردسن:

وهو رحالة إنجليزي ولد في لندن في الثالث من نوفمبر1809م وتوفي في الرابع من مارس1851م، وقد زار طرابلس خلال سنتي 1845-1846م، وألف كتابا أطلق عليه اسم ترحال في الصحراء، وقد زار الواحات الليبية وأثناء عودته إلى طرابلس مر على مدينة زليتن وتطرق في مدوناته للجوانب الاقتصادية بالمدينة على وجه الخصوص[9].

5- الأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور:

هو رحالة نمساوي ولد في الرابع من أغسطس1847م في فلورنسا عاصمة توسكانيا، وهو الابن الرابع للأرشيدوق النمساوي ليوبولد الثاني، وقد زار زليتن وطرابلس قادما من الإسكندرية سنة1873م ولديه ما يزيد عن خمسين كتابا منشورا، وفيما يخص طرابلس كان له كتاب حمل عنوان رحلة على متن يخت في السرتين خليج سرت الكبير والصغير في 1873م، ترجم حديثا تحت عنوان السواحل الليبية التونسية، وقد أشار في رحلته هذه إلى مدينة زليتن التي شاهد بعض معالمها وهو على متن قاربه، وعلى مقربة من مرسى المدينة[10].

6- الرحالة: محمد بن عثمان التونسي الحشائشي: 1855-1912م:

وهو رحالة تونسي الأصل، ولد في تونس في الثاني عشر من يونيو1855م، درس التفسير واللغة العربية في جامعة الزيتونة، ألف ما يقرب من أربعة عشر كتابا، قام برحلته إلى طرابلس الغرب سنة 1895م، وبالمناسبة ألف كتابه المعروف بجلاء الكرب عن طرابلس الغرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أي في أواخر حكم العثمانيين، وقبل إعلان إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية واحتلال طرابلس الغرب سنة 1911م[11].

ويجدر بنا إلى أن هذه الرحلة تعتبر مصدرا مهما من المصادر التي تتحدث عن تاريخ ليبيا، حيث تناولت ليبيا من حيث الآثار والطرق والنشاط الاقتصادي والزراعي والمساجد، وأهل العلم، كما تحدث عن الحياة في مدن طرابلس الغرب

([6])باولو دي لاشيلا، أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة سنة1817م، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، دار مكتبة الفكر طرابلس، د.ت، ص9-14؛ زبيدة أحمد ناجي، وفاء كاظم ماضي الكندي، زيارات الرحالة الأجانب الى ولاية طرابلس الغرب في القرن التاسع عشر، بحث منشور ضمن مجلة العلوم الإنسانية كلية التربية جامعة بابل، م37، ع/1، آذار مارس2020.

([7])جون فرانسيس ليون ، مذكرات فرانسيس ليون من طرابلس إلى فزان 1818، تعريب: مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1976، ص7-8.

([8]) هنري وفريدرك بيتشي، الأخوان بيتشي والساحل الليبي1821-1822، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1 ،1996، ص1؛ زبيدة أحمد ناجي، وفاء كاظم ماضي الكندي، المرجع السابق.

([9]) جميس ريتشاردس، ترحال رفي الصحراء، ترجمة الهادي مصطفة بو لقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1، 1993، ص5-22.

([10])الأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور: المصدر السابق، ص20-30.

([11])محمد بن عثمان التونسي الحشائشي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا المعروفة بجلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق: على مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط/1 ،1965، ص7-8؛ ميلاد امحمد الزليتني، موقف السلطات الحاكمة في ليبيا من نشاط الرحالة العرب والأوربيين في ليبيا في الفترة مابين1798-1923م بحث منشور مجلة كلية الآداب جامعة مصراتة، ع/1 ،2004، ص167.

والسواحل وغدامس وفزان، وبالتالي فإن هذه الرحلة تعتبر مصدرا مهما لدراسي التاريخ الليبي، وفيما يخص مدينة زليتن فقد تحدث عن ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر فقط؛ لأنه لم يتمكن من الدخول إلى المدينة[12]. ربما تخوفا من السلطات العثمانية من نشاطات زائري طرابلس الغرب في تلك الفترة، وخشية من أن يكونوا عملاء للدول الاستعمارية.

إن هذه الشخصيات التي زارت زليتن في فترات متباعدة خلال القرن التاسع الميلادي وكتبت عنها ضمن مؤلفاتها عن طرابلس الغرب يفرض علينا واقع الحال نقل انطباعاتها عن المدينة، وأهمية تلك الانطباعات للدراسة العلمية الجادة.

ثانيا: صورة مدينة زليتن في كتابات زائريها:

لقد صورت هذه الكتابات مدينة زليتن من عدة نواح منها: الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية عن طريق وصفها للمباني في هذه المدينة، وأيضا لم تغفل تلك الكتابات عن الناحية الدينية، حيث أشارت إلى ضريح الولي الصالح عبد السلام الأسمر، وفي هذا المبحث سيتم عرض هذه المعلومات التي وردت في هذه الكتب، والتي تعتبر من المصادر المهمة لدراسة تاريخ مدينة زليتن.

أولا: من الناحية الدينية والعمرانية:

من الناحية العمرانية نلاحظ أن أغلب زائري منطقة زليتن وصفوا المباني بأنها مجموعة من المنازل والأبنية المبعثرة بين أشجار النخيل والزيتون، وأن هذه المباني كانت تشيد من الوحل (الطين) والحجارة، ويتم بناء الأسقف بما يشبه الحصير المصنوع من جريد النخيل، بعد تغطيته بطبقة من التراب، وهي ذات الطريقة التي كانت متبعة في بناء البيوت والمساكن في جل المدن الطرابلسية في تلك الفترة[13].

تكمن المعلومات الواردة عن الناحية الدينية من خلال التعريف بضريح الولي الصالح عبد السلام الأسمر، فالرحالة فرانسيس ليون عند حديثه عن الشيخ الأسمر يقول يحظى ضريحه باحترام، فهو رفات مرابط عظيم وهو مدفون بمسجد رائع وأنيق، تتخلله المآذن والقباب، وحوائط الجامع مدهونة بطلاء أبيض، كما يشير إلى أن ذريته أولاد الشيخ كانت تحظى باحترام وهيبة في مجتمع زليتن[14].

وأما الحشائشي في حديثه عن الضريح ذكر إن مقام الشيخ موجود على ساحل البحر في غاية الانشراح، يبعد عن زليتن بمقدر أربعة أو خمسة أميال، ويوجد على قبره الشريف التابوت[15]. ويسرد لنا الأخوان بيتشي قصة وصولهما إلى ضريح الشيخ الأسمر، حيث يقولا إنهما نصبا خيمتهما على الكثبان الرملية قرب الضريح، وهو يقع بالقرب من شاطئ زليتن، وقد أقيم هذا الضريح على أعمدة رخامية هزيلة، يوجد بالقرب منها أعمدة رخامية متناثرة، وقطع من الفخار والزجاج، إضافة إلى بقايا من الحمامات العربية المبنية من الحجارة والإسفلت[16].

بعد انتهاء المؤلفين من تحديد موقع الأسمر هالهما ما شاهداه من حب واحترام لهذا الشيخ فيقولا:" أبدى المرافقون من العرب بالغ حرصهم ورغبتهم في ضرورة إظهارنا ببالغ حرصنا واهتمامنا بقبر هذا الولي المقدس، وذلك باجتيازنا الضريح بخطوات بطيئة وحزينة وعلى بعد مناسب"[17].

وكان من حب هؤلاء العرب لهذا الضريح حسب قول الرحالة فإنهم كانوا يقدمون له الهدايا من الأكل والخضروات والفواكه، ومن الواضح بأن شهية الولي الذي توفي منذ 500 سنة قد عادت له الحياة في مثل هذه المناسبات، وبأن هذه الأطعمة تختفي بسرعة كبيرة، مما يدعوننا إلى الانبهار أمام حجم الكميات من الأطعمة التي يستهلكها الأموات أمثال

(12) محمد بن عثمان التونسي الحشائشي، المصدر السابق، ص108.

(13) بيتشي، مصدر سابق، ص78؛ فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص248.

(14)يون، مصدر سابق، ص240.

(15)الحشائشي، مصدر سابق، ص108.

(16)بيتشي، مصدر سابق، ص79.

(17) المصدر نفسه، ص79.

هؤلاء المشايخ[18]. وبالإضافة إلى الأكل ذكر لنا الرحالة الهدايا التي كانت تقدم لهذا الشيخ، وهي عبارة عن أكوام الأخشاب والمحاريث والحصر والملابس القديمة والمسدسات والأسرجة والسبح وغيرها[19].

ومن الروايات التي دونها الأخوان بيتشي عن هذا الولي بأنه كان ملجأ للمجرمين، للاحتماء بالشيخ، حيث كان ضريح الشيخ مكانا مقدسا لا يمكن انتهاك حرمته، فقد كان يأوي المجرم إلى حرمة المرابط والاحتماء به، وبهذا يكون قد ضمن لنفسه وقوف السلطات عاجزة عن النيل منه إلا إذا اضطره الجوع والعطش للخروج من ملجأه، ومن هنا سيتم القبض عليه وتلجأ السلطة في مثل هذه الحالات إلى مراقبة دقيقة للضريح، تمنع من خلالها وصول الماء والغذاء للمجرمين المتحصنين بداخل الأضرحة[20].

ومن خلال ما سرده لنا الأخوان بيتشي عن الولي عبد السلام الأسمر نلاحظ أنهما قد تحدثا بالتفصيل عن هذا الولي، وعن العادات التي كان يقوم بها أهالي زليتن وغيرهم، على عكس ما كان قد أشار إليه ليون والحشائشي، فلذلك يعتبر مصدرا مهما للتعريف بهذا الضريح وبدراسة تاريخ مدينة زليتن بشكل عام.

أما الطبيب الإيطالي دي لاشيلا فإنه لم يتطرق مباشرة للحديث عن ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر إلا بإشارة بسيطة، فذكر أن البي قائد الحملة وهم في الطريق إلى بنغازي وعند مروره بقرية زليتن قام بزيارة بعض أضرحة المرابطين[21]؛ الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن باولو دي لاشيلا ربما بحكم مهنته كطبيب لم يكن مهتما ومطلعا على ما تحوية الأضرحة، وما تمثله من أهمية لدى المجتمع الطرابلسي، بل كان مركزا على النباتات والمحاصيل الزراعية التي استأثرت باهتمامه حال مروره بزليتن.

وأما بالنسبة للرحالة جيمس ريتشاردسن والرحالة النمساوي لودفيغ فإنهما لم يتحدثا عن ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر أو غيره من الأضرحة، بل كان تركيزهما منصبا على الحياة الاقتصادية داخل منطقة زليتن، بل إن هذين المصدرين لم يعطيا زليتن حقها في الوصف، لأن لود فيغ لم ينزل من سفينته للبر إطلاقا[22]، وبالتالي لم يتسن له رؤية الأضرحة أو زيارة المعالم داخل زليتن، وأما جيمس ريتشاردسن فقد مكث بزليتن يوما أو بعض يوم، وربما في أطرافها فكان مندهشا بما راءه من حقول الشعير وأيضا مندهشا برؤية البحر لأنه لم يره منذ تسعة أشهر كان قد مضاها باحثا ومترحلا في الصحراء[23].

ثانيا: النواحي الاجتماعية والاقتصادية:

فيما يخص الناحية الاجتماعية فإنه من حيث سكان منطقة زليتن نجد بعض الرحالة والزائرين قد ذكر أنه كان يقطن زليتن ما بين 300-500 نسمة[24]، وربما قصد وسط المدينة فقط، وليس كامل زليتن، حيث أشار إلى أن جل ذلك العدد كان من اليهود، الذين كانوا يسيطرون على مفاصل التجارة والمال في البلاد[25]، لأن هناك من أشار إلى وجود خمسة عشر قرية في زليتن[26]، وبالتالي فإن عدد السكان بالمنطقة كان أكثر بكثير من الرقم المعلن آنفا.

ومن النواحي الاجتماعية أيضا أشار بعض الرحالة والزائرين باقتضاب إلى دور المرأة في منطقة زليتن، فمنهم من أشار إلى نشاطاتها الاقتصادية، من حيث المساهمة في عملية إعداد الصوف وغسلة وغسل الثياب وجلب المياه لبيوتهن[27]. وهناك من أشار إلى قيام النسوة بإعداد الطعام لأهل بيتهن، واستقبال المحاربين منهم بالأهازيج والأغاني ونحوها، مما

([18])المصدر نفسه، ص79.

([19])المصدر نفسه، ص79.

([20]) المصدر نفسه، ص80.

([21])دي لاشيلا، مصدر سابق، ص40-41.

([22]) لودفيغ سلفاتور، مصدر سابق، ص101.

([23]) جيمس ريتشاردسن، ترحال في الصحراء، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1 ،1993، ص576.

([24])بيتشي، مصدر سابق، ص77.

([25])المصدر نفسه، ص77، ليون، مصدر سابق، ص247.

([26]) بيتشي، مصدر سابق، ص77.

([27])بيتشي، مصر سابق، ص78.

يؤكد على تولي النسوة طحن وطهي الطعام وأن الغناء والندب على المتوفين كان مقصورا على النساء، وخاصة من الجواري الزنجيات[28].

أما من النواحي الاقتصادية فنجد أن زائري هذه المنطقة كان تركيزهم منصبا على الخيرات الموجودة داخلها، فتحدثوا عن الأراضي الخصبة، فمنهم من وصفها بجنة الله في الأرض، لوفرة أشجار الزيتون والنخيل والفواكه والخضروات[29]، ومنهم من أيد وأعجب بما قاله المؤرخ اليوناني هيردوت عن زليتن بأنها تشبه في خصوبة تربتها وجودة إنتاجها بابل ببلاد الرافدين، والتي كانت من أخصب بقاع الأرض في تلك الفترة[30].

وفي هذا الاطار يسرد لنا ليون الحديث عن خصوبة أرض زليتن حيث يقول إنه يوجد بمنطقة زليتن أشجار النخيل والزيتون التي تغطي مساحات قدرها ثلاثة أو أربعة أميال مربعة، هذا بالإضافة إلى شهرة المدينة بزراعة الذرة، حيث ذكر إن زليتن كانت غنية بزراعة الذرة والبلح[31].

أما الأخوان بيتشي فقد تحدثا عن توفر الشعير وزيت الزيتون بزليتن بكثرة، ونظرا لوفرتهما كان ثمن هذه المنتجات أرخص مقارنة بمدينة طرابلس، وهذا يدل على وفرة أشجار الزيتون بمنطقة زليتن، ناهيك عن كثرة زراعة الحبوب كالشعير، ووفرته حتى أن الرحالة تزودا بحاجتهما من الشعير، قبل أن يغادرا المنطقة عائدين إلى طرابلس[32].

ومما جعل من محصول الشعير يمتاز بوفرته في تلك السنة حسب ما شاهده الرحالة الأخوان بيتشي فإنه كان نتيجة غزارة الأمطار التي تساقطت على إقليم طرابلس خلال ذلك العام[33].

أما الرحالة جيمس فقد تحدث عن المزارع داخل منطقة زليتن، وقال إنه وصل إلى قرية زليتن، التي وصفها بأنها قرية صغيرة وسط غابة من أشجار النخيل والزيتون وبعض الفواكه والخضروات، ويسرد لنا أنه أقام ورفاقه معسكرهم وسط أشجار النخيل وحقول الشعير، وبصفة عامة لا يمكن مقارنة محصولي القمح والشعير في هذه المنطقة أو أي منطقة أخرى بالشمال الأفريقي بنظرياتها التي تزرع في أوربا، بما فيها بريطانيا بلد الرحالة[34]. وهذا يوكد على وفرة الإنتاج الزراعي في منطقة زليتن، وخصوبة أراضيها، وهذا جاء نتيجة كميات الأمطار التي هطلت على زليتن في تلك الفترة، وهذا ما اتفقت عليه جل المصادر والمؤلفات التي تركها لنا أولئك الرحالة والزائرون لزليتن خلال القرن التاسع عشر الميلادي[35].

ومن النواحي الاقتصادية أيضا نجد أن هذه المصادر قد تحدثت عن الأسواق الموجودة داخل زليتن، وما كان يباع فيها، حيث ذكر الرحالة فرانسيس ليون بأنه كان يوجد في زليتن سوقان يعقدان كل أسبوع، يعقد أحدهما يوم الجمعة، ومكانه أمام القلعة والآخر يعقد يوم الثلاثاء، ومكانه أمام ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر، وأن هذ الأسواق كان يتحكم فيها اليهود، فهم أصحاب الحرف والتجارة ومعاملاتهم تبدأ من المليم إلى مئات الدولارات، كما يصنع هؤلاء اليهود مشروبا مسكرا عن طريق عصر البلح، يعرف باسم اللاقبي، ويجدون له سوقا رائجة داخل المنطقة، ويصدر الفائض منه إلى خارج زليتن عن طريق قوارب لنقل البضائع الزليتينة، ونظرا لوفرة خيراتها من النخيل والزيتون كان يتم تبادل الفائض من الإنتاج وإنتاج الحصر المحلية مع تجار البادية أو بنقله إلى الأسواق الأخرى، ليكون في مقدور التجار عرضها وبيعها وترويجها[36].

([28])يون، مصدر سابق، ص249.

([29]) بيتشي، مصدر سابق،، ص339.

([30]) دي لاشيلا، مصدر سابق، ص40؛ بيتشي، مصدر سابق، ص77.

([31])ليون، مصدر سابق، ص248.

([32])بيتشي، مصدر سابق، ص77.

([33])المصدر نفسه، ص77.

([34])جيمس ريتشارد سن، مصدر سابق، 576.

([35]) بيتشي، مصدر سابق، ص78.

([36]) فرانسيس ليون، مصدر سابق، ص249.

كما نجد أن الرحلة جيمس قد تطرق إلى كيفية صنع هذا المشروب، فقال بإنه اشترى منه كمية وفيرة، وعن كيفية استخراج هذا المشروب من النخيل يقول:" إنه يتم قطع العديد من رؤوس أشجار النخيل للحصول على هذا المشروب، الذي يصبح مسكرا إذا تخمر، والذي يلقى إقبالا واسعا بين عدد من الناس"[37].

وأما فيما يخص ميناء مدينة زليتن وعلى حسب ما ورد في كتابات زائريها فإنه كان يوجد بها مرسى لكنه غير صالح للملاحة البحرية، حيث ذكر بيتشي ولود فيغ بأن ميناء زليتن كان صغيرا ورديئا ولا يمكن أن ترسو فيه السفن والقوارب الكبيرة، لسببين الأول لوجود أحجار تعيق رسو هذه السفن، والسبب الثاني عمق الماء كان لا يزيد عن خمسة أو ستة أقدام، وهذا جعل الميناء غير مناسب لرسو السفن الكبيرة[38].

وبعد هذا العرض نلاحظ أن الحياة الاقتصادية داخل زليتن خلال القرن التاسع عشر الميلادي كانت مزدهرة بخيراتها الطبيعية وأنها كانت مصدرا للغذاء، ليس لسكان مدينة زليتن وحسب بل حتى خارج المدينة، ونتيجة لوفرة خيراتها كانت الأسعار مقارنة بغيرها من المدن الطرابلسية رخيصة حيث كانت تلك السلع الزليتنية زادا لزائريها الأجانب حال مغادرة المدينة إلى جهات أخرى.

الخلاصة:

من خلال الدراسة المتواضعة لصورة زليتن لدى زوارها خلال القرن التاسع عشر الميلادي فإنه يمكن أن نسجل الملاحظات الاستنتاجية التالية:

أولا: كان موقع ليبيا الجغرافي سببا في اختيار الرحالة والزوار أوربيون ومن جنسيات أخرى للأراضي الطرابلسية ميدانا للبحث والتنقيب والعبور إلى دواخل أفريقيا، ناهيك عن سواحلها المطلة على البحار والمحيطات، وبالتالي كانت مدينة زليتن المدينة الساحلية ضمن المدن والقرى الطرابلسية التي حظيت بنصيب من مدونات الرحالة الذين زاروا طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

ثانيا: كان الرحالة الإنجليز الأكثر اهتماما بسواحل طرابلس دون غيرهم من الرحالة الأوربيين الآخرين، وبالتالي كان لمدونات الرحالة الإنجليز نصيب الأسد في مادة هذه الدراسة، رغم قلة الرحالة أصلا الذين اهتموا بزليتن ودونوا ملاحظات عنها، فربما هذا راجع لاهتمام جل الرحالة بالصحراء وكيفية الوصول إلى منابع الثروة فيما وراء تلك الصحراء.

ثالثا: اختلاف المعلومات والتناقض كان واضحا بين زائري زليتن في هذه الفترة، وهذا راجع لثقافة كل رحالة، وظروف رحلته، وأسباب تلك الرحلة أصلا، ناهيك عن الموقع أو المواقع التي زارها كل رحالة، والمدد الزمنية التي أمضاها كل رحالة في مدينة زليتن وضواحيها.

رابعا: تبقى مدونات الرحالة والزائرين خلال القرن التاسع عشر الميلادي مصدرا مهما لدارسي تاريخ زليتن بشكل خاص والتاريخ الليبي الحديث والمعاصر بشكل عام، وخصوصا فيما يخص التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب:

- الأبيض، رجب انصير، طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009.
- الحشائشي، محمد بن عثمان التونسي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا المعروفة بجلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق: على مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط/1 ،1965.
- بانزه، افالد، طرابلس مطلع القرن العشرين في وصف الجغرافي الألماني إفالد بانزه، دراسة وترجمة: عماد الدين غانم، مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية، طرابلس،1997.
- بيتشي، هنري وفريدرك، الأخوان بيتشي والساحل الليبي1821-1822، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1 ،1996.

([37])جيمس ريتشاردسن، مصدر سابق، ص576.

([38]) بيتشي، مصدر سابق، ص78؛ لودفيغ، مصدر سابق، ص101.

- ريتشارد سن، جيمس، ترحال في الصحراء، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط/1 ،1993.
- سلفاتور، الأمير النمساوي لودفيغ، السواحل الليبية التونسية في الرحلة البحرية للأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور1873، ترجمة عماد الدين غانم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2005.
- لاشيلا، باولو دي، أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة سنة1817م، ترجمة: الهادي مصطفى بولقمة، دار مكتبة الفكر طرابلس، د.ت.
- ليون، جون فرانسيس، مذكرات فرانسيس ليون من طرابلس إلى فزان 1818، تعريب: مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1976.
ثانيا: البحوث والمقالات المنشورة:
- الزليتني، ميلاد امحمد، موقف السلطات الحاكمة في ليبيا من نشاط الرحالة العرب والأوربيين في ليبيا في الفترة مابين1798-1923م بحث منشور مجلة كلية الآداب جامعة مصراتة، ع/1 ،2004.
- ناجي، زبيدة أحمد ووفاء كاظم ماضي الكندي، زيارات الرحالة الأجانب الى ولاية طرابلس الغرب في القرن التاسع عشر، بحث منشور ضمن مجلة العلوم الإنسانية كلية التربية جامعة بابل، م37، ع/1، آذار مارس2020.

The City of Zliten in The Writings of its Visitors During The Nineteenth Century AD

Wafaa Belaid Al-Qayed

Department of History, Faculty of Arts, Al-Marqab University

Abstract:

The city of Zliten received great attention from many writers in the nineteenth century AD due to the growing international interest in Libya in particular and Africa in general. The interest was evident in the group of blogs and writings of those who visited western Libya in separate periods of that century. The city of Zliten had a prominent place in those writings according to the cultures and circumstances of their authorship and the goals for which their writers came to Libya, whether they were Arabs or foreigners, visitors, explorers, travellers, doctors, intelligence men, and so on. I chose this period of time (the nineteenth century AD) because of its importance in the modern history of Libya and Zliten in particular. The first three decades of the century witnessed the dominance of the Qaramanlites, as their state reached the height of its prosperity, and the city of Zliten was as a pearl adorning the sky of the central region in the west of the country. It then witnessed the great collapse of the Qaramanli rule and the return of direct Ottoman rule to the Libyan country, where Zliten entered a new stage at the level of administration, economy, culture etc. which was reflected in the writings of its visitors when they granted it a lot of attention. The study seeks to uncover the nature of these writings, their authors and owners, and to know the picture that was painted for Zliten on the front pages of those writings. The study attempts to answer a set of questions: What was the nature of the writings of Zliten visitors during the nineteenth century AD? What is its historical and scientific importance? And what is the picture that was drawn for Zliten in those writings and their importance when studying the city's modern history.

Keywords: Zliten, Travelers, Scholarly life, 19th century AD